مفهوم الإمامة في فكر زرارة وآل أعين[1]

هادي إلياسي[2]
أكبر أقوام كرباسي[3]

الملخّص

زرارة بن أعين فقيه ومتكلم إمامي مشهور، عاش في الكوفة في القرن الثاني من الهجرة، وكان له ولأسرته «آل أعين» تأثير ودورٌ في الفقه، والكلام، والحديث الإمامي، فرووا أحاديث كثيرة في هذه المجالات. وما ميّز الخطّ الفكري لزرارة من بين محدّثي الكوفة ومتكلِّميهم، هو سجلّه الحافل، وفهمه الاجتهادي، وأسئلته الذكية التي كان يطرحها على الأئمة المعصومين عليهم السلام. وتهدف هذه الدراسة إلى البحث في عناصر مفهوم الإمامة والولاية، كتعريفها وبيان حدودها، وإيضاح الخصائص والشروط المهمّة للإمامة كعلم، ومناصبه ومقاماته، في فكر زرارة وآل أعين؛ ذلك أنّ دراسة الأفكار والمفاهيم المتعلقة بالإمامة في فكر هذا المحدّث والمتكلِّم الكوفي الكبير تسهم في توضيح مفهوم الإمامة عند المحدّثين- المتكلمين.

الكلمات المفتاحية: زرارة بن أعين، علم الإمام، شروط الإمام، مقام الولاية، مقام افتراض الطاعة.

---

١. تاريخ الاستلام: ٢٠٢٣/٠٥/١٢م؛ تاريخ القبول: ٢٠٢٣/١٢/١٢م.

٢. طالب في السطح الرابع، قسم الإمامة، الحوزة العلمية في قم المقدسة، إيران (الباحث المسؤول).
elyasihadi@gmail.com

٣. أستاذ مساعد في معهد الفلسفة والكلام التابع لمركز أبحاث العلوم والثقافة الإسلامية، قم، إيران.
Akbarkarbassi@gmail.com

تمهيد

زرارة بن أعين الشيباني من أصحاب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، فقيه، ومتكلم، وشاعر، وأديب كوفي،[1] ويعدّ بمعيّة عبد الملك، وحمران، وعبد الرحمن، وبكير من وجوه آل أعين، وقد نُصَّ على أنّه كان أفقه من إخوانه وبني عمومته.[2] وكان زرارة من الشخصيّات المتميّزة، والمفكرين البارزين في الكوفة، انضمّ في برهة من الزمن إلى مذهب متكلِّمي الكوفة، لكنّه ما لبث أن انفصل عن هذا الخطّ الفكري، ورجّح منهج المحدّثين المتكلمين. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي دفع الباحثين إلى منحه مكانةً متميزةً، بل يُضاف إلى هذا وفاء ثلّة من أسرته وذويه في كثير من القضايا الفكرية، وكذلك نقله كمّاً هائلاً من الروايات، مقارنةً بغيره من الرواة المرموقين، أمثال مؤمن الطاق، وهشام بن سالم، وهشام بن الحكم، وأدّى ذلك إلى ظهور طائفة من الرواة، تستند إلى أفكاره الكلاميّة في القرن الهجريّ الثاني.[3]

الآراء الكلاميّة لزرارة، خصوصاً في أبواب مسألة الاستطاعة، والقدر، والأفعال الإلهية، والإيمان والكفر، والمعرفة، والتحديث، وأمثال ذلك، جعلته من الوجوه الشهيرة في الكوفة، وقد ترتّب على ذلك ردود أفعال عدّة تتراوح بين المدح والذمّ.[4] ولا يُستبعد أن تكون هذه المنزلة الرفيعة وهذا الدور العلمي لزرارة في تاريخ الأفكار العقائديّة هي التي أبرزت هذا الرجل في أوساط الباحثين في هذا المجال، ليبادورا إلى محاولة التعرّف إليه ودراسة أفكاره، هو وأسرته من آل أعين.

ومن هذا المنطلق، نحاول في هذه الدراسة إعطاء صورة واضحة عن فكر زرارة حول مفهوم الإمامة. والنقطة المهمة في هذا المجال، هي أنّه إلى الآن لم تتشكّل أنظمة كلامية كالتي برزت في مدرستي بغداد والحلة الكلاميّتين، ليتسنّى من خلالها الكشف عن منظومة الإمامة التي كان يؤمن بها زرارة وأسرته، وإنّما ينبغي توخي هذه المباحث في ثنايا الوقائع التاريخية المعبّرة عن أفكارهم أو الروايات المرويّة عنهم.

١. النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي، ص ١٧٥، الرقم ٤٦٣.
٢. أبو غالب الزراري، احمد بن محمد، رسالة في آل أعين، ص ١٨٨.
٣. عدد من الباحثين، جستارهايى در مدرسه كلامي كوفه، ص ٢٧.
٤. الكشي، محمد بن عمر، رجال الكشّي، ١/ ٣٤٥، الرقم ٢٠٨ و ٢٣٥.

١. ضرورة وجود الإمام

تعدّ مسألة الإمامة من وجهة نظر أصحاب الأئمة في الكوفة إحدى أهمّ أركان الإسلام، بل الركن الركين فيه، وقد بلغت أهمّيّة هذه العقيدة في أفكارهم إلى درجة اعتقادهم بأنّه لا يمكن بقاء أهل الأرض دون إمام ولو للحظةٍ واحدةٍ، ومن اللازم في رأيهم معرفة مسألة الإمامة، والتعرّف إلى مصداق الإمام بوصفه الشخص المنصوب من قبل الله تعالى. ويرى متكلّمو أهل الكوفة أنّ هذه المعرفة تُعدُّ من المبادئ الضروريّة واللازمة للإيمان الحقيقيّ، فلا يكون الشخص الذي يجهل الأبعاد الوجوديّة للإمام ولا يعرف شخصه، معذوراً عند الله، ويمكن استكشاف هذا التصور لدى الأصحاب من الإمامية في الكوفة من خلال الأسئلة التي طرحوها على الأئمة عليهم السلام. وفي الحقيقة، كان الإماميون الكوفيون يؤمنون بأنّ للإمام منزلةً عظيمةً جدّاً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو وليّ الله الأوحد في الأرض، لذا لا يعدّ وجودُه فقط مهمّاً وضروريّاً لهداية الأمة، بل كانوا يرون وجوب معرفته أيضاً.

وعلى الرغم من الاختلاف بين المتكلّمين والفقهاء في وجوب وجود الإمام في المجتمع، فإنّ هذا الاعتقاد يحظى بكثير من المقبوليّة والانتشار. وقد استدلّت الإمامية على وجوب وجود الإمام ونصبه ببعض صفات الله تعالى، كالرحمة، واللطف والحكمة، وشدّدت على أنّ ترك ذلك يستلزم النقص في تلك الصفات الإلهيّة. ويمكن العثور على هذه العقيدة في الروايات المنقولة عن رواة الكوفة كزرارة وأسرته. فروي عنه أنّه سأل الإمام الصادق عليه السلام عن ضرورة وجود الإمام قائلاً: «يمضي الإمام وليس له عقب؟» فأجاب الإمام عليه السلام بإمكان ذلك في حالة واحدة فقط، وهي حالة غضب الله على الناس ومعاجلتهم بالعذاب بأخذ الإمام من بينهم.[١] ومن هنا، فإنّ وجود الإمام واجب بالنظر إلى صفات الله الجمالية، وغيابُه يكشف عن الغضب والسخط الإلهي.

---

١. عن زرارة قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: يمضي الإمام وليس له عقب؟ قال: «لا يكون ذلك». قلت: فيكون ماذا؟ قال: «لا يكون ذلك إلا أن يغضب الله عزّ وجلّ على خلقه فيعاجلهم» (ابن بابويه، علي بن الحسين، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ١٣٤؛ الصدوق، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، ١/ ٢٠٤).

ومن الروايات التي وصلتنا عن طريق زرارة، ما رواه حول الآية التاسعة عشر من سورة الأنعام، وذكر فيها ضرورة وجود إمام لهداية الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ذلك أنّ إنذار الناس وهداية الأمة من شؤون الرسل والأنبياء الإلهيين، فوُضِع هذا العمل بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على عاتق الأئمة الميامين عليهم السلام؛ لينذروا الناس في سبيل الهداية. روى زرارة عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾،[1] قالا: «يعني الأئمّةَ من بعدِهِ، وهم يُنذرونَ بهِ النّاسَ».[2] وبذلك أثبت أنّ هداية النبي صلى الله عليه وآله وسلم تكون من بعده للأئمة المعصومين عليهم السلام.

٢. وجوب معرفة الإمام

إنّ ضرورة وجود الإمام أمر تكويني، كفله الله عزّ وجلّ، بيد أنّ معرفة الإمام أمرٌ تشريعيٌّ، وتكليفٌ واجبٌ على الناس. وقد أحصى الأشعري -متكلم أهل السنّة المعروف- أقوال الإمامية في إمكان الجهل بالأئمة ومعرفتهم، فقال:

> اختلفت الروافض في الأئمة هل يسعُ جهلهم، وهل الواجب عرفانهم فقط، أم الواجب عرفانهم والقيام بالشرائع التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ....[3]

ويُستفاد من الكلام اللاحق للأشعري هذه المعلومة التاريخيّة، وهي أنّ أصل هذا الاختلاف يعود إلى فهم الأصحاب لوجوب المعرفة، فهل معرفة الإمام من المعارف الضروريّة أم الاكتسابيّة؟

إنّ وجوب المعرفة على لسان الأصحاب من الإمامية في القرن الثاني الهجري تعني أنّه ليس للإنسان دورٌ في كسبِ أصل المعرفة، بل المعرفة فعلٌ إلهيٌّ يتفضل به الله على من يشاء من عباده، وغاية ما يمكن للإنسان أن يفعله لتلقّي المعرفة يعود إلى كسب المقدمات لا أصل المعرفة. وبالرجوع إلى كلام الأشعري المتقدم، نجد أنّه أفاد بأنّ بعض أصحابنا كعبد الله بن أبي يعفور كان يؤمن بأنّ معرفة الإمام ليست

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٩.

٢. العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ١/ ١٠١.

٣. الأشعري، علي، مقالات الإسلاميين، ١/ ٤٩- ٥٠.

من المعارف الضروريّة، بل يسعُ الإنسان الجهل بالأئمة، بينما ذهب الآخرون إلى أنّ معرفة الأئمّة من المعارف الضرورية، ولا يسع الإنسان جهلهم.[1]

وبقرينة كلام الأشعري، يمكن القول: إنّ رأي زرارة في هذا الموضوع، مطابقٌ للفرقة القائلة بوجوب معرفة الإمام، وأنّه لا يسع الإنسان الجهل به، استناداً إلى ضرورة المعرفة. ولا يقتصر الأمر على قول الأشعري وحسب، بل إنّ الشهرستاني أيضاً نَسَبَ ذلك إلى زرارة وأصحابه في باب المعرفة فقال: «وحكي عن الزرارية، أنّ المعرفة ضروريّة، وأنّه لا يسع جهل الأئمة».[2]

روي عن زرارة أنّه سأل الإمام الباقر عليه السلام عن وجوب معرفة الإمام على جميع الخلق، فأجابه الإمام عليه السلام إنّها واجبة على من آمن بالله، ورسوله، واتّبعه، وصدّقه.[3] ومن هنا وفي السياق ذاته، روى زرارة وحمران عن الإمام الصادق عليه السلام أنّهما سألاه عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾،[4] فأجاب إنّ المقصود من الدخول في السلم هو معرفتنا، فأمر الله المؤمنين بمعرفة الأئمة.[5]

٣- مقامات الإمام

٣-١- مقام الولاية

ذهب زرارة إلى ارتباط مقامِ الإمامة بمقام الولاية، مثلما جرى التأكيد على ذلك في الكتاب والسنّة، ودلّت عليه كتب اللغة أيضاً، فالإمام لغةً كلُّ من اقتُدِي به وقُدِّم

---

١. المصدر نفسه.

٢. الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، ١/ ٢١٨.

٣. عن هشام بن سالم، عن زرارة قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: أخبرني عن معرفة الإمام منكم واجبة على جميع الخلق؟ فقال: إنّ الله عزّ وجلّ بعث محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس أجمعين، رسولاً وحجّةً لله على جميع خلقه في أرضه، فمن آمن بالله وبمحمد رسول الله واتّبعه وصدّقه فإنّ معرفة الإمام منّا واجبة عليه، ومن لم يؤمن بالله وبرسوله ولم يتّبعه ولم يصدّقه ويعرف حقّهما فكيف يجب عليه معرفة الإمام وهو لا يؤمن بالله ورسوله ويعرف حقّهما؟» (الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ١٨٠- ١٨١).

٤. سورة البقرة: الآية ٢٠٨.

٥. عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالوا: «سألناهما عن قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾، قال: أُمروا بمعرفتنا» (العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ١/ ٢٨).

في الأمور.[1] وثمّة ألفاظ أخرى شبيهةٌ بلفظ الإمام وردت في القرآن الكريم والروايات، كالولاية، والخلافة، والوصاية، والحجّة، فهي تشترك مع هذه الكلمة معنىً، وإن اختلفت عنها مفهوماً. لكنّ المصداق الأتمّ لها، هو لفظ «الإمام». ولو عقدنا مقارنةً بين مفهومي «الإمام» و «الوليّ» في المصادر النصّيّة، لوجدنا أنّ مفردة «الإمام» أعمّ من مفردة «الوليّ»، فتشمل أئمة الهدى وأئمة الضلال،[2] كما أنّ لكلمة «الوليّ» مفهوماً عامّاً وشاملاً من الناحية اللغويّة وفي الاستعمال القرآني أيضاً،[3] فهي ناظرة إلى من له حقّ التصرّف في الشيء، وأمره نافذ فيه، سواء بلغ هذا المقام بالحقّ، أو بالظلم والباطل.

ثم إنّ البحث في الروايات الأخرى لزرارة يكشف عن أنّه كان يشير إلى الإمام بمفردة «وليّ»، ويعبّر عنه بمقام الولاية. منها رواية جميلة أخرجها، وعدد آخر من الرواة حول وجوب الولاية، والإعلان عنها يوم الغدير.[4] وقد أشار النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الرواية إلى آيات الولاية والتبليغ والإكمال لإثبات إمامة أمير المؤمنين عليه السلام.

وروى زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام في مقام التعريف بالإسلام أنّه بُني على خمسة أشياء، إحداها الولاية، بل الولاية أفضل هذه الخمسة، لأنّها مفتاح لفهمهنّ ودليل عليهنّ.[5]

---

١. ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، ١/ ٢٨.

٢. ينظر: سورة الإسراء: الآية ٧١؛ سورة التوبة: الآية ١٢؛ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ٢١٦.

٣. ينظر: سورة المائدة: الآية ٥٥؛ سورة الأعراف: الآية ٢٧.

٤. علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر بن أذينة، عن زرارة، والفضيل بن يسار، وبكير بن أعين، ومحمد بن مسلم، وبريد بن معاوية، وأبي الجارود، جميعاً عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «أمر الله عزّ وجلّ رسوله بولاية علي وأنزل عليه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، وفرض ولاية أولي الأمر، فلم يدروا ما هي، فأمر الله محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يفسّر لهم الولاية، كما فسّر لهم الصلاة والزكاة والصوم والحجّ، فلمّا أتاه ذلك من الله ضاق بذلك صدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتخوّف أن يرتدّوا عن دينهم، وأن يكذّبوه، فضاق صدره وراجع ربّه عزّ وجلّ، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فصدع بأمر الله تعالى ذكره، فقام بولاية علي عليه السلام يوم غدير خمّ، فنادى الصلاة جامعةً وأمر الناس أن يبلّغ الشاهد الغائب». قال عمر بن أذينة: قالوا جميعاً- غير أبي الجارود-: وقال أبو جعفر عليه السلام: «وكانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الأخرى، وكانت الولاية آخر الفرائض، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾». قال أبو جعفر عليه السلام: «يقول الله عزّ وجلّ: لا أنزل عليكم بعد هذه فريضة، قد أكملت لكم الفرائض». (الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ٢٨٩).

٥. عن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «بُنى الإسلام على خمسة أشياءٍ، على الصلاة والزكاة والحجّ والصوم

ويرى زرارة أنّ المراد من الرحمة الإلهيّة في القرآن الكريم، ولاية أهل البيت والأئمّة الميامين عليهم السلام فروى عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ قال: «فضل الله رسوله، ورحمته ولاية الأئمة».[1]

٣-١-١. الولاية التشريعيّة

تماشياً مع الآيات والروايات المأثورة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام، ذهب زرارة إلى أنّ هذه الولاية في مقام الأمر والنهي -التشريع-، فلا ريب في أنّ من حقّ الله -تعالى- حصراً أن يُعرف في الأدب الديني بالأمر التشريعي، أو الولاية التشريعية، لكنّه جلّ وعلا فوّض هذا الحقّ إلى الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام. ويعدّ تفويض أمر الدين، من المفاهيم المهمّة حول مقام الإمامة في فكر زرارة، كما إنّ التفويض في أمر الدين يمثّل وجهَ التمايز بين مقام الإمامة والنبوّة؛ ذلك أنّ الإمام كالنبيّ مبلّغٌ أو حافظ للدين فقط، وليس له أفضلية من هذه الناحية، وهذا ما صرّحت به روايات عديدة في هذا الباب.[2]

لقد حظي تفويض الدين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام في روايات المتكلمين بأهمّيّة فائقة.[3] وفي هذا السياق، كان لزرارة وأسرته دورٌ متميّز في نقل روايات التفويض، حيث أخرجوا أغلب الروايات في هذا الباب، منها ما رواه زرارة عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، حيث قالا: «إنّ الله تبارك وتعالى فوّض إلى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أمرَ خلقه لينظر كيف طاعتهم».[4]

والولاية». قال زرارة: فأيّ ذلك أفضل؟ فقال: «الولاية أفضلهنّ؛ لأنها مفتاحهنّ، والوالي هو الدليل عليهنّ» (البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن، ١/ ٢٨٦).

١. العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ١/ ٢٦٠.

٢. ينظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ١٧٤- ١٧٧، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام و باب الفرق بين الرسول والنبيّ والمحدَّث.

٣. جمع المرحوم الصفّار في كتاب البصائر تسع عشرة رواية تحت عنوان باب التفويض إلى رسول الله، ثم أورد ثلاث عشرة رواية في باب آخر عنونه بباب ما فُوّض إلى رسول الله فُوّض إلى الأئمة. وأخرج المرحوم الكليني في كتاب الكافي عشر روايات ضمن باب التفويض إلى رسول الله وإلى الأئمة في أمر الدين.

٤. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ٢٦٧.

وكان زرارة يعتبر تفويض أمر الدين إلى الإمام، كتفويض أمر الشريعة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ويرى أنّ دائرة نفوذ الإمام في الشريعة كحدود ولاية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المجال، ويمكن إثبات هذا المدّعى من خلال تتبّع الروايات المنقولة عنه بصيغة قياس من ثلاث نقاطٌ وبالشكل التالي:

- إنّ الله تعالى أمرَ الناسَ بطاعة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، فتجب طاعته والعمل بكلّ ما جاء به إلى الناس من أوامر ونواهي.[1]
- لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولاية في أمور الشريعة، فشرّع بعض الأحكام من عند نفسه.[2]
- بما أنّ الإمام عليه السلام خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يثبت له ما ثبت للرسول من ولاية في الأمور الدينية؛ ولذا يكون عنده جميع مسائل الحلال والحرام.[3]

وفي الحقيقة، كان زرارة يؤمن بأنّ تشريع الأحكام قد فُوّض من الله تعالى إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الميامين عليهم السلام، بحيث شُرّعت بعض الأحكام الدينية من قبل الأئمة المعصومين عليهم السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا التشريع مغايرٌ للأحكام الولائية الاجتماعية. ومن هنا، روى ابن بكير عن زرارة أنّه سأل الإمام الباقر عليه السلام عن أشياء من الصلاة، والديات، والميراث، وأشياء من أشباه هذا، فأجاب الإمام عليه السلام: «إنّ الله فوّض إلى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم».[4] كما روي رواية أخرى عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام

١. أبو علي الأشعري، عن محمد بن عبد الجبار، عن ابن فضال، عن ثعلبة بن ميمون، عن زرارة، أنّه سمع أبا جعفر وأبا عبد الله عليهما السلام يقولان: «إنّ الله تبارك وتعالى فوّض إلى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أمر خلقه لينظر كيف طاعتهم، ثم تلا هذه الآية ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾» (المصدر نفسه).

٢. الحسين بن محمد، عن معلّى بن محمد، عن الوشّاء، عن حمّاد بن عثمان، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دية العين ودية النفس وحرّم النبيذ وكلّ مسكر». فقال له رجل: وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غير أن يكون جاء فيه شيء؟ قال: «نعم، ليعلم من يطيع الرسول ممّن يعصيه» (المصدر نفسه).

٣. حدّثنا محمّد بن الحسين، عن الحسن بن علي بن فضّال، عن ثعلبة، عن زرارة، عن أحمد بن موسى، عن علي بن إسماعيل، عن صفوان بن يحيى، عن أبي الحسن عليه السلام، قال: قلت: يكون الإمام يُسأل عن الحلال والحرام ولا يكون عنده فيه شيء؟ قال: «لا، قال الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ هم الأئمة ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾». قلت: من هم؟ قال: نحن. قلت: فمن المأمور بالمسألة؟ قال: أنتم. قلت: فإنّا نسألك وقد رُمتُ أنّه لا يمنع منّي إذا أتيتُه من هذا الوجه، فقال: «إنّما أُمرتم أن تسألوا وليس علينا الجواب، إنّما ذلك إلينا». (الصفّار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، ص ٣٩ – ٤٠).

٤. المصدر نفسه، ص ٣٧٩.

قال: «وضع رسول الله ﷺ دية العين، ودية النفس، وحرّم النبيذ، وكلّ مسكر. فقال له رجل: وضع رسول الله ﷺ من غير أن يكون جاء فيه شيء؟ قال: نعم، ليعلم من يطيع الرسول ممّن يعصيه».[1]

٣-١-٢. الولاية التكوينيّة

لا يقتصر مقام ولاية أهل البيت عليهم السلام على الأمور التشريعيّة فحسب، ويدخل زرارة وأسرته من آل أعين في عداد الأصحاب الذين كانوا يؤمنون بولاية للأئمّة عليهم السلام في أمور التكوين أيضاً، ولا يقيّدون ولايتهم بمجالٍ خاصّ. ولا ريب في أنّ هذه القدرة موهوبة لهم من الباري -عزّ وجلّ-، كما هو الحال في الأمور التشريعية والأوامر والنواهي. وثمّة روايات في التراث الروائي لزرارة تكشف عن هذا المقام للأئمّة الميامين عليهم السلام، نحو ما رواه عن الإمام الباقر عليه السلام في أنّ الأرض تطوى لهم،[2] وكذلك الرواية الأخرى الحاكية عن التصرّف التكوينيّ للإمام السجاد عليه السلام في الحجر الأسود وإنطاقه بإذن الله لإثبات إمامته لعمّه محمد بن الحنفية.[3]

٣-٢. مقام افتراض الطاعة

إنّ المنزلة الرفيعة للإمامة بين الأصحاب من طائفة الإمامية دفعت بعض الأفراد في القرن الثاني من الهجرة إلى القول بعدم الفرق بين الإمام والنبيّ، واعتقادهم بأنّ الإمام نبي.[4] وتشير الأسئلة الكثيرة من الأصحاب للأئمة عليهم السلام في هذا الخصوص إلى هذه الإشكاليّة التي مفادها: إن كانت الإمامة كالنبوة، ومثلما كان النبي مبعوثاً من الله -تعالى- ومرسلاً لهداية البشر، فالإمام كذلك مختار من الله، ومنصوب في مقام الإمامة من قبل الرسول ﷺ. ومن الطبيعي أن يكون كالنبيّ من حيث كونه مفترض الطاعة، وتجب طاعته على الجميع، فما الفارق إذن بين الإمام وبين النبيّ؟

---

١. المصدر نفسه، ص ٣٧٩؛ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ٢٦٧.
٢. الصفّار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، ص ٣٩٨.
٣. المصدر نفسه، ص ٥٠٢؛ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ٣٤٨.
٤. الصفّار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، ص ٢٥٨.

من أهمّ مقامات الإمام التي كان يؤمن بها زرارة وآل أعين، مقام افتراض الطاعة للإمام، بمعنى وجوب اتّباعه وطاعته بصورة مستقلّة، فثمّة أهمّيّة كبيرة لافتراض طاعة الإمام من حيث مقام الإمامة وفرض وجوب اتّباعه استقلالاً، فلو فرضنا أنّ مقام افتراض الطاعة للإمام ثابت له من حيث خلافته لرسول الله ﷺ والنبوّة، فلا يعدّ وجوب الطاعة في هذه الحالة وجوباً مستقلّاً، وإنّما تكون الطاعة وفقاً لهذه الرؤية، ذات بُعدٍ تعليلي وتقليدي. وعليه، لا يكتسب مقام افتراض الطاعة للإمام أهمّيّة تُذكر إلا إن كان بسبب منزلة الإمامة نفسها، فتعتبر الطاعة في هذه الحالة استقلاليّة ومن حيث مقام الإمامة.

ذهب زرارة إلى أنّ الإمام مفترض الطاعة، فشدّد على أنّ من واجبات الأمّة مقابل الإمام لزوم معرفته أوّلاً، ثم طاعته ثانياً، ولذا روى حديثاً عن الإمام الباقر عليه السلام، ذكر فيه أنّ رضا الرحمن في لزوم طاعة الإمام بعد معرفته.[1]

كما إنّه اعتبر طاعة الإمام الحدّ الفاصل بين الإيمان والكفر، وأكد على أنّها تدلّ على الإيمان بالله يوم القيامة. وفي هذا السياق، نقل حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام بواسطة أبي الخطاب المعروف بانحرافه وغلوّه، لكنّه أشار قبل بيان نصّ الحديث إلى أنّه سمعه منه في فترة استقامته وقبل تغيّر عقيدته وانحرافه. فلما سأل أبو الخطاب الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾،[2] قال: «﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ بطاعة من أمر الله بطاعته من آل محمّدٍ ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾».[3]

---

١. عن زرارة، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن الطاعة للإمام بعد معرفته» (العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ١/ ٢٥٩).

٢. سورة الزمر: الآية ٤٥.

٣. علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر بن أذينة، عن زرارة، قال: حدّثني أبو الخطاب في أحسن ما يكون حالاً قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، فقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ بطاعة من أمر الله بطاعته من آل محمّدٍ ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ﴾ لم يأمر الله بطاعتهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾» (الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٨/ ٣٠٤).

إنّ نقل زرارة حديثاً عن أبي الخطاب بعد انحرافه وقوله بالغلوّ، وتصريحه بأنّه إنّما ينقل عنه إبّان استقامته، دليلٌ على أهمية الحديث ومضمونه وتلقّيه عن الإمام المعصوم؛ وذلك لإيمانه بأهمية إطاعة الإمام المعصوم.

٣-٣. سائر المقامات

لا يمكن اختزال التراث الذي وصلنا من زرارة وآل أعين حول مقامات الأئمة الميامين عليهم السلام بمقامي الولاية وافتراض الطاعة، فعلى سبيل المثال روى حمران بن أعين رواية تدور حول خلق الأئمة الأطهار عليهم السلام من نور جنب الله.[١] وروى بكير بن أعين روايةً اعتبر فيها الإمامة عهداً إلهيّاً أخذه الباري تعالى من الناس في أول مرحلة من مراحل خلقهم، كما نقل حمران بن أعين عدّة روايات حول هذا الموضوع ليكشف فيها عن إيمانه بكون الإمامة عهداً إلهيّاً،[٢] وذلك من أجل التأكيد على أنّ مقام الولاية والإمامة ليس مقاماً سياسيّاً فحسب، بل هو عهد إلهي وربّاني، أُخذ بموجبه ميثاق من عباد الله، حتى في العوالم السابقة أيضاً.

ومن المقامات التي ذكرها آل أعين وأثبتوها للأئمة الميامين عليهم السلام يوم القيامة من خلال نقل روايات عديدة في هذا الشأن، مقام الشفاعة.[٣] وكذلك أخرجوا بعض

١. قال محمد بن العباس: حدّثنا أحمد بن هوذة الباهلي، عن إبراهيم بن إسحاق، عن عبد الله بن حمّاد، عن حمران بن أعين، عن أبان بن تغلب، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾، قال: «خُلقنا والله من نور جنب الله، خَلقنا الله جزءاً من جنب الله، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾، يعني في ولاية علي عليه السلام» (الأسترآبادي، تأويل الآيات الظاهرة، ص ٥٠٨). وجدير بالذكر أنّ هذه الرواية غير موجودة في الكتب المتقدمة على «تأويل الآيات الظاهرة»، وبما أنّ هذا الحديث ناظر إلى الآية الشريفة: ﴿يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾، فلأجل فهم معناه لا بدّ من فهم معنى هذه الآية أولاً، ولعلّ أفضل تفسير للآية المذكورة هو ما ذكره العلامة الطباطبائي حيث قال: «معنى الآية إنّما نخاطبكم بهذا الخطاب حذر أن تقول أو لئلا تقول نفس منكم: يا حسرتا على ما قصّرت في جانب الله، وإنّي كنت من المستهزئين» (الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ١٧/ ٢٨٢). وفي ضوء هذا التفسير للآية، وكذلك بالنظر إلى المعنى اللغوي لكلمة «جنب» («الجيم والنون والباء أصلان متقاربان، أحدهما الناحية، والآخر البُعد» (ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ١/ ٤٨٣)، يمكن القول في معنى الحديث المتقدّم: إنّ الأئمة عليهم السلام خُلقوا من نور الله -تعالى-.

٢. انظر على سبيل المثال: العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ٢/ ١٢٦.

٣. الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي، ص ١٢٧؛ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٨/ ٤٣.

الروايات حول إنكار سهو النبي ﷺ الذي أثار نزاعاً شديداً بين متكلمي مدرسة قم[1] ومدرسة بغداد،[2] ففي روايةٍ سأل زرارة الإمام الباقر عليه السلام عن إتيان النبي ﷺ بسجدتي السهو، فنفى الإمام وقوع ذلك منه مطلقاً.[3]

وعلى الرغم من ذلك، ثمّة روايتان في بعض كتب الرجال والتراجم يُستفاد منهما في الوهلة الأولى أنّ زرارة لم يكن يحترم المقام الإلهي للأئمّة عليهم السلام.[4] هذا في الوقت

---

١. أوضح الشيخ الصدوق رؤيته حول هذا الموضوع قائلاً: «إنّ الغلاة والمفوّضة (لعنهم الله) ينكرون سهو النبي ﷺ، ويقولون: لو جاز أن يسهو ﷺ في الصلاة لجاز أن يسهو في التبليغ؛ لأنّ الصلاة عليه فريضة كما أنّ التبليغ عليه فريضة، وهذا لا يلزمنا، وذلك لأنّ جميع الأحوال المشتركة يقع على النبي ﷺ فيها ما يقع على غيره، وهو متعبّد بالصلاة كغيره ممّن ليس بنبيٍّ، وليس كلّ من سواه بنبيٍّ كهو، فالحالة التي اختصّ بها هي النبوّة، والتبليغ من شرائطها، ولا يجوز أن يقع عليه في التبليغ ما يقع عليه في الصلاة؛ لأنّها عبادة مخصوصة والصلاة عبادة مشتركة، وبها تثبت له العبودية، وبإثبات النوم له عن خدمة ربّه عزّ وجلّ من غير إرادة له وقصد منه إليه نفي الربوبية عنه؛ لأنّ الذي لا تأخذه سنة ولا نوم هو الله الحيّ القيّوم، وليس سهو النبيّ ﷺ كسهونا؛ لأنّ سهوه من الله -عزّ وجلّ-، وإنّما أسهاه ليعلم أنّه بشر مخلوق، فلا يُتّخذ ربّاً معبوداً دونه، وليعلم الناس بسهوه حكم السهو متى سهواً ...» (الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، ١/ ٣٥٩- ٣٦٠).

٢. قال الشيخ المفيد ردّاً على من ذهب إلى أنّ القمّيين يقولون بالسهو ويؤكّدون على سهو النبي ﷺ: «اعلم أنّ الذي حكيت عنه ما حكيت، ممّا قد أثبتناه، قد تكلّف ما ليس من شأنه، فأبدى بذلك عن نقصه في العلم وعجزه، ولو كان ممّن وُفّق لرشده لما تعرّض لما لا يحسنه، ولا هو من صناعته، ولا يهتدي إلى معرفة طريقه، لكنّ الهوى مود لصاحبه، نعوذ بالله من سلب التوفيق، ونسأله العصمة من الضلال، ونستهديه في سلوك منهج الحقّ، وواضح الطريق بمنّه. الحديث الذي روته الناصبة والمقلّدة من الشيعة أنّ النبي ﷺ سها في صلاته، فسلم في ركعتين ناسياً، فلما نُبّه على غلطه فيما صنع، أضاف إليها ركعتين، ثمّ سجد سجدتي السهو، من أخبار الآحاد التي لا تثمر علماً، ولا توجب عملاً، ومن عمل على شيءٍ منها فعلى الظنّ يعتمد في عمله بها دون اليقين، وقد نهى الله تعالى عن العمل على الظنّ في الدين، وحذّر من القول فيه بغير علم ويقين». (المفيد، محمد بن محمد، رسالة عدم سهو النبي، ص ٢٠- ٢١).

٣. أفتى الشيخ الطوسي بعدم سهو النبي ﷺ استناداً إلى هذه الرواية: «عنه، عن أحمد بن محمد، عن الحسن بن محبوب، عن عبد الله بن بكير، عن زرارة، قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام: هل سجد رسول الله ﷺ سجدتي السهو قطّ؟ فقال: لا، ولا يسجدهما فقيه». قال محمد بن الحسن: «الذي أفتي به ما تضمّنه هذا الخبر، فأمّا الأخبار التي قدّمناها من أنّ النبي ﷺ سها فسجد، فإنّها موافقة للعامة، وإنّما ذكرناها لأنّ ما تتضمّنه من الأحكام معمول بها على ما بيّناه» (الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، ٢/ ٣٥٠- ٣٥١).

٤. هاتان الروايتان هما:

- حدّثنا محمد بن مسعود، قال: حدّثنا جبريل بن أحمد الفاريابي، قال: حدّثني العبيدي محمّد بن عيسى،

الذي روى روايات كثيرة حول المقامات المعنويّة للأئمّة عليهم السلام، تكشف عن عمق إدراكه لمنزلتهم الإلهية.

لمناقشة هذه الدعوى ينبغي القول: لو راجعنا أولى روايات الآحاد التي أخرجها الكشّي في رجاله، التي أشارت إلى استياء زرارة من الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام،[1] لوجدنا أنّها مخالفة لمجموع الروايات التي رواها هو عن الإمام الصادق عليه السلام بشأن عظمة الأئمّة الميامين عليهم السلام.[2] ولوتنزّلنا وقبلنا مضمون تلك الرواية، فلا بدّ من توجيهها بأنّ موقف الإمام الصادق عليه السلام من زرارة ربما كان بسبب وجهات نظره الشخصيّة البعيدة عن سياق النصوص المأثورة في بداية دخوله إلى معترك علم الكلام، فصدرت منه بعض الأخطاء في هذا المجال، وهذا ما دفع الإمام إلى ذمّه وتقريعه. ومن غير المستبعد تشبّث بعض المخالفين من المذاهب الكلاميّة الأخرى بمثل هذا التقريع ونقله إلى زرارة بعد تهويله،[3] ولمّا كان يُنقل له كلام الإمام عنه باستمرار،[4]

عن يونس بن عبد الرحمن، عن ابن مسكان، قال: «سمعت زرارة يقول: رحم الله أبا جعفر، وأما جعفر فإنّ في قلبي عليه لفتة. فقلت له: وما حمل زرارة على هذا؟ قال: حمله على هذا لأنّ أبا عبد الله عليه السلام أخرج مخازيه» (الكشّي، محمد بن عمر، رجال الكشّي، ص ١٤٤– ١٤٥).

– يوسف، قال: حدّثني علي بن أحمد بن بقاح، عن عمّه، عن زرارة، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن التشهد؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله. قلت: التحيات والصلوات؟ قال: التحيات والصلوات. فلما خرجت قلت: إن لقيته لأسألنّه غداً، فسألته من الغد عن التشهّد، فقال كمثل ذلك، قلت: التحيات والصلوات؟ قال التحيات والصلوات. قلت: ألقاه بعد يوم لأسألنّه غداً، فسألته عن التشهد، فقال كمثله. قلت: التحيات والصلوات؟ قال: التحيات والصلوات. فلما خرجت ضرطت في لحيته وقلت: لا يفلح ابداً» (المصدر نفسه، ص ١٥٩).

١. المصدر نفسه، ص ١٤٤– ١٤٥.

٢. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٨/ ٣٠٤؛ الصفّار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، ١/ ٤٣٠؛ العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ١/ ١٠٢.

٣. حدّثني حمدويه بن نصير، قال: حدّثني محمد بن عيسى بن عبيد، عن ابن أبي عمير، عن عبد الرحمن بن الحجاج، عن حمزة، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: بلغني أنّك برئت من عمّي يعني زرارة؟ قال: فقال: أنا لم أبرأ من زرارة، لكنّهم يجيؤن ويذكرون ويروون عنه، فلو سكت عنه ألزمونيه، فأقول من قال هذا، فأنا إلى الله منه بريء» (الكشّي، محمد بن عمر، رجال الكشّي، ص ١٤٦).

٤. حدّثني محمد بن قولويه، قال: حدّثنا سعد بن عبد الله القمّي، عن محمد بن عبد الله المسمعي، وأحمد بن محمد بن عيسى، عن علي بن أسباط، عن الحسين بن زرارة، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ أبي يقرأ

فقد السيطرة على نفسه نتيجة الضغوط النفسيّة الشديدة، وشكا من الإمام، فشكّلت هذه الشكوى ذريعة بيد المخالفين، وسارعوا إلى إشاعة أنّ زرارة نال من الإمام وتكلم عنه بكلام قبيح.

وفي الرواية الثانية، ورد أنّ زرارة سأل الإمام الصادق عليه السلام عن التشهد، فأجابه، لكنّه أعاد السؤال مرّتين أخريين في أوقات أخرى على الإمام ليطمئنّ من صحة الجواب، وفي كلا السؤالين كان جواب الإمام نفسه، ويبدو أنّ هذا الجواب لم يرُق لزارة فتكلّم بكلمات غير لائقة بحقّ الإمام،[1] لكنّ سند هذه الرواية ضعيف جدّاً ولا ينبغي الاعتناء بها.[2]

٤. شروط الإمام

إنّ ما وجدناه في روايات زرارة وأسرته من آل أعين من الشروط المذكورة للإمام- بحسب تتبّعنا- هو مسألة العلم فقط؛ ولذا سنتطرق تحت هذا العنوان إلى علم الإمام فقط.

٤-١. علم الإمام

يعدّ علم الإمام من أهمّ المباحث على صعيد الإمامة في كتب الحديث الشيعيّة، حتّى أنّ الروايات الواردة في هذا المجال أكثر منها في المجالات الأخرى، وتضمّنت هذه الروايات بحوثاً مختلفة، كحقيقة علم الإمام، وسعته، ومصادره. وكان الحجم الكبير للروايات سبباً في ذكر طروحات متعددة حول علم الإمام وخصائصه، ومصادره من قبل متكلّمي الكوفة وبنظرة عامة يمكن تصنيف كلماتهم ضمن قولين أساسيين. إنّ

عليك السلام ويقول لك: جعلني الله فداك أنّه لا يزال الرجل والرجلان يقدمان فيذكران أنّك ذكرتني وقلت فيّ. فقال: اقرأ أباك السلام، وقل له: أنا والله أحبّ لك الخير في الدنيا وأحبّ لك الخير في الآخرة، وأنا والله عنك راضٍ، فما تبالي ما قال الناس بعد هذا» (المصدر نفسه، ص ١٤١).

١. المصدر نفسه، ص ١٥٩.

٢. سند الرواية هو: «يوسف، قال: حدّثني علي بن أحمد بن بقاح، عن عمّه، عن زرارة». المراد من يوسف في رجال الكشّي هو يوسف بن السخت البصري الذي قال العلّامة فيه: «ضعيف، مرتفع القول، استثناه القمّيون من نوادر الحكمة» (الحلي، الحسن بن يوسف، خلاصة الأقوال، ص ٢٦٥). وفيما يتعلّق بعلي بن أحمد بن بقاح وعمّه ينبغي القول: إنّهما مجهولان وليس لهما ترجمة في كتب الرجال الشيعية.

المرور على تاريخ الروايات لدى متكلمي الكوفة يعكس حقيقة أنّ فكرهم اجتاز على مرّ التاريخ مسيرة تكاملية طويلة، كان هدفها الوصول إلى معرفة الأئمة الأطهار عليهم السلام معرفة دقيقة، ومن خلال هذه المسيرة نبذت التصورات المغلوطة والمفاهيم الخاطئة، وفي نهاية المطاف توصلت إلى الاعتقاد الصحيح بشأن علم الأئمة عليهم السلام. وفي الحقيقة، انتقلت هذه المسيرة من الإيمان بمحدودية علم الإمام واقتصاره على العلوم الشرعية والمعارف الضرورية للإمامة الدينية والزعامة الاجتماعية، إلى القول بعدم محدودية علم الإمام، والإيمان بسعة دائرة هذا العلم، ليشمل جميع العلوم البشريّة، مضافاً إلى الأخبار الغيبية والعلم اللدنّي.

ثم إنّ الروايات الموجودة في كتب الفرق والمذاهب تكشف على الأقلّ عن قولين أساسيّين بين المتكلمين وعلماء الإمامية الأوائل تجاه علم الإمام، ومن ثمّ انقسامهم إلى فريقين:[1] فريق يقف على رأسهم هشام بن الحكم والرواة السائرون على خطّه الفكري، كيونس بن عبد الرحمن والفضل بن شاذان، ذهبوا إلى العلم بالتوارث أي يرث الإمام اللاحق علمه من الإمام السابق. كانت هذه الطائفة من الرواة تؤمن بانقطاع الوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ علم الإمام محدود بالتوارث والكتب السماوية للأنبياء والأولياء السابقين، فلا يذكرون شيئاً عن الإلهام أو الوحي وما شاكل.[2] لكنّ هذه النظرة الضيّقة لهشام وأتباعه شهدت تغيّراً وطالها التعديل لاحقاً، ويمكن التماس الشاهد على ذلك في رواية يونس بن يعقوب، التي أشارت إلى مناظرة رجل من أهل الشام مع أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، ولما غُلب الشامي سأل هشام بن الحكم: الأعلم بالكتاب والسنّة في وقت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الرسول، والساعة مَن الأعلم؟ فقال هشام: هذا القاعد الذي تُشدّ إليه الرحال، ويخبرنا بأخبار السماء [والأرض] وراثةً عن أبٍ عن جدٍّ.[3]

ومقابل هذا الفريق، ذهب أغلب المحدّثين ومتكلّمي الإمامية في الكوفة إلى

١. ينظر: الأشعري، علي، مقالات الإسلاميين، ص ٥٠؛ النوبختي، حسن، فرق الشيعة، ص ٨٨- ٩٠.
٢. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ٢٢٧.
٣. المصدر نفسه، ١/١٧٣.

وجود مصادر أخرى لعلم الإمام، كالوحي والإلهام، فضلاً عن التوارث.[1] وهذا القول ناشئ من ثلاث طوائف من الروايات:

الطائفة الأولى: الروايات التي أشارت إلى زيادة علم الإمام، ولولا تلك الزيادة لنفد علمه، وفقاً لما روى زرارة عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام.[2]

الطائفة الثانية: الروايات التي كشفت عن زيادة علم الإمام عن طريق النكت والقذف والنقر، والذي أطلق عليه الأصحاب اسم جهات علوم الأئمة، وثمّة روايات كثيرة في هذا الباب، بعضها مروي عن محمد بن حمران وأبيه.[3]

الطائفة الثالثة: الروايات التي بيّنت كيفيّة ارتباط الإمام بالملائكة وزيادة علمه عن طريقهم، وفي الغالب وردت تحت عنوان «التحديث» و «المحدّثون». ويمكن تصنيف الروايات المروية عن زرارة في هذا المجال ضمن ثلاث فئات:

أ) تحديث الإمام وارتباطه بالملائكة، نحو «الاثنا عشر الأئمة من آل محمد كلّهم محدَّث»،[4] «أوصياء عليّ محدَّثون»،[5] والرواية الدالّة على رؤية جبرائيل.[6]

ب) كيفية تحديث الإمام، من قبيل ما روي «ينكت في آذانهم».[7]

ج) اختلاف تحديث الإمام عن النبي، نحو الرسول والنبيّ والمحدَّث.[8]

---

١. حدّثنا محمد بن الحسين، عن الحسن بن علي بن فضال، عن أبي بكير، عن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «ما مضى أبو جعفر حتّى صارت الكتب إليّ» (الصفّار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، ص ١٦٧).

٢. حدّثنا أحمد بن محمد، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن ثعلبة، عن زرارة، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «لولا نُزاد لأنفدنا. قال: قلت: تُزادون شيئاً لا يعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: إنّه إذا كان ذلك عُرض على رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم على الأئمة، ثم انتهى إلينا» (المصدر نفسه، ص ٣٩٢).

٣. المصدر نفسه، ص ٣١٧– ٣١٨.

٤. المصدر نفسه، ص ٣٢٠؛ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ٥٣١.

٥. الصفّار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، ص ٩٣.

٦. المصدر نفسه، ص ٣٢٢.

٧. المصدر نفسه، ص ٣٢٤.

٨. المصدر نفسه، ص ٣٦٩– ٣٧١؛ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ١٧٦.

٤-٢. المصادر المعنويّة وغير الماديّة

أشرنا إلى أنّ المستفاد من بعض الروايات هو أنّ الإمام عليه السلام يستمدّ علمه أحياناً من مصادر ماورائية وغير طبيعية، بحيث لا يتسنّى لغيره الاستفادة من تلك المصادر، وذلك من قبيل:

٤-٢-١. تحديث الأئمة عليهم السلام

يؤمن متكلّمو الكوفة بأنّ الأئمّة الميامين عليهم السلام يتلقّون جانباً واسعاً من علومهم عن طريق تحديث الملائكة لهم، وإخبارهم بكثير من الأمور، واعتبروا هذه الحالة من علامات الإمامة.

وفي هذا السياق، روى زرارة عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه ذكر للإمام عشر علامات، أحدها أنّه محدَّث إلى آخر يوم في حياته.[١]

وروى الكليني عن زرارة هذه الرواية، قال:

> سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: الإثنا عشر الامام من آل محمد عليهم السلام كلّهم محدَّث، من وُلد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن وُلد عليّ، ورسول الله وعلي عليهما السلام هما الوالدان. فقال علي بن راشد، وكان أخا علي بن الحسين لأمّه، وأنكر ذلك، فصرر [صرخ] أبو جعفر عليه السلام وقال: أما إنّ ابن أمّك كان أحدهم.[٢]

كما روى زرارة عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أيضاً أنّه سمعه يقول:

> نحن اثنا عشر إماماً من آل محمد كلّهم محدّثون بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام منهم.[٣]

وفي حديث لصفوان بن يحيى، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «كان أبو جعفر عليه السلام محدَّثاً». وبهذا الإسناد قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «كان الحسن والحسين عليهما السلام محدَّثين».[٤]

---

١. علي بن محمد، عن بعض أصحابنا، عن ابن أبي عمير، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «للإمام عشر علامات... وهو محدَّث إلى أن تنقضي أيامه» (الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ٣٨٨- ٣٨٩).

٢. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ٥٣١؛ البحراني، هاشم، الإنصاف في النصّ على الأئمة، ص ٢١٨.

٣. الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ١/ ٥٧.

٤. الصفّار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، ص ٣٩٢؛ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٢٦/ ٧٢.

وفي بعض الأحيان، يأمر الأئمة المعصومون عليهم السلام أتباعهم من متكلمي الكوفة بأن يعلّموا الآخرين معتقدات الشيعة، مثلما قال الإمام الباقر عليه السلام لزرارة: «أعلِمْ الحكم بن عُيينة[1] أنّ أوصياء عليٍّ محدَّثون».[2]

وفي رواية أخرى، قال زرارة:

> قال لي الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: أحجّ حمران؟ قلت: لا، وهو يقرئك السلام. فقال: إنّه من المؤمنين حقّاً لا يرجع أبداً، إذا لقيته فأقرئه منّي السلام وقل له: لمَ حدّثت الحكم بن عيينة عنّي أنّ الأوصياء محدّثون؟ لا تحدّثه وأشباهه بمثل هذا الحديث.[3]

وروي عن الحارث النضري، قال:

> قال لي الحكم بن عيينة: «إنّ مولاي عليّ بن الحسين عليهما السلام قال لي: إنّما علم عليّ عليه السلام كلّه في آية واحدة. قال: فخرج حمران بن أعين ليسأله فوجد عليّاً عليه السلام قد قُبض، فقال لأبي جعفر عليه السلام: إنّ الحكم حدّث عن علي بن الحسين عليه السلام أنّه قال: إنّ علم عليّ عليه السلام كلّه في آية واحدة، فقال أبو جعفر عليه السلام: وما تدري ما هي؟ قلت: لا. قال: هي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ وَلا مُحدَّثٍ.[4]

وبهذا، يظهر من بعض الروايات الواصلة إلينا أنّ الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، كان لهم طيلة فترة إمامتهم ارتباط وثيق بالملائكة، فكانت تختلف إلى بيوتهم، وتنقل لهم العلوم المختلفة.

وتفيد بعض الروايات التفسيريّة الواردة في تفسير بعض السور والآيات، نحو سورة القدر، أنّ تحديث الأئمة عليهم السلام كان يقع في أزمنة خاصّة كليلة القدر وليلة الجمعة. من هنا، أفرد المرحوم الصفّار في كتاب «بصائر الدرجات» باباً تحت عنوان «باب

---

١. كان زيديّاً بتريّاً (ينظر: ابن داود الحلي، الحسن بن علي، رجال ابن داود، ص ٤٤٩).
٢. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٢٦/ ٧٢.
٣. المصدر نفسه، ٢٦/ ٨١.
٤. المصدر نفسه، ٢٦/ ٨١- ٨٢.

ما يزاد الأئمّة في ليلة الجمعة من العلم المستفاد»، وجاء فيه بسبع روايات، أوّلها عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام:

أحمد بن موسى، عن جعفر بن محمد بن مالك الكوفي، عن يوسف الأبزاري، عن المفضّل، قال:

قال لي أبو عبد الله عليه السلام ذات يوم وكان لا يكنّيني قبل ذلك: يا أبا عبد الله! فقلت: لبّيك جُعلت فداك. قال: إنّ لنا في كلّ ليلة جمعة سروراً. قلت: زادك الله، وما ذاك؟ قال: إنّه إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العرش، ووافى الأئمّة معه، ووافينا معهم، فلا تردّ أرواحنا إلى أبداننا إلا بعلمٍ مستفادٍ، ولولا ذلك لنفد ما عندنا.[1]

يُستفاد من مجموع هذه الروايات أنّ الأئمة عليهم السلام كانوا محدَّثين، وكانوا يتلقّون جانباً من علومهم بواسطة التحديث، لكن هل هذا التحديث دائمي أم متعلّق بأزمان معيّنة وأوقات خاصّة؟ هذا ما لا يمكن فهمه من تلك الروايات.

٤-٢-٢. طرق التحديث

ذكرنا أنّ إحدى الطرق لتلقّي الأئمة عليهم السلام العلم هي التحديث والارتباط بالملائكة، وقد بيّنت بعض الروايات المروية بواسطة الرواة الكوفيين كيفية التحديث، منها على سبيل المثال، ما يتمّ عبر إلقاء روح القدس، حيث أشارت الروايات المنقولة عن متكلّمي الكوفة عن الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام إلى رسالة، مفادها أنّ أحد المصادر الواسعة لتلك الذوات المقدسة هو روح القدس، الذي كان ملازماً للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ثم رافق الأئمّة الميامين عليهم السلام، وكان يلقي إليهم العلوم المختلفة. ومن هنا، ذكر الإمام الصادق عليه السلام في رواية، أنّ روح القدس أحد الأرواح الخمسة التي جعلها الله تعالى في النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وأضاف قائلاً: «فبهِ حمَلَ النبوة، فإذا قُبض النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم انتقل روح القدس فصار إلى الإمام، وروح القدس لا ينام، ولا يغفل، ولا يلهو، ولا يزهو... وروح القدس كان [الإمام] يرى به».[2]

١. الصفّار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، ص ١٣٠.

٢. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ٢٧٢.

وقال الباري -جلّ وعلا- مخاطباً النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في سورة الشورى حول عظمة الروح:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.[1]

ويتّضح من إنعام النظر والتدبّر في هذه الآيات والروايات أنّ الروح غير الملائكة، كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن بعده على أهل بيته عليهم السلام، مع الملائكة تارة، وبمعزل عنها تارة أخرى، ويزوّدُهم بالأمور المهمة والعلوم الإلهية. وعليه، فتحديث الإمام يحصل بواسطتين: الملائكة والروح.

روى ابن بكير عن زرارة ذيل الآية المتقدمة أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال فيها: «منذ أنزل الله ذلك الرّوح على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ما صعد إلى السماء، وإنّه لفينا».[2]

تكشف هذه الرواية عن أنّ أحد مصادر علم الأئمة من أهل البيت عليهم السلام روح سماوية كانت تنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحسبما ذكر الباري -تعالى- في سورة القدر تنزّل هذه الروح في كلّ ليلة من ليالي القدر على أهل البيت عليهم السلام.

إنّ المعصومين عليهم السلام يحكمون على أساس علم الأنبياء السابقين، وإذا ما عجزوا عن شيءٍ، أمدّهم به روح القدس. روى حمران بن أعين عن جعيد الهمداني قال:

> سألت علي بن الحسين عليه السلام بأيّ حكم تحكمون؟ قال: نحكم بحكم آل داود [دون بيّنة]، فإن عيينا شيئاً تلقّانا به روح القدس.[3]

وروى حمران أيضاً قال:

قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أنبياء أنتم؟ قال: لا. قلت: فقد حدّثني من لا أتّهم

---

١. سورة الشورى: الآية ٥٢.

٢. أحمد بن محمد، عن ابن محبوب، عن ابن بكير، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، فقال أبو جعفر عليه السلام: «منذ أنزل الله ذلك الرّوح على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ما صعد إلى السماء، وإنّه لفينا» (المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٢٥/ ٦١).

٣. المصدر نفسه، ٢٥/ ٥٦.

أنّك قلت: إنّا أنبياء. قال: من هو، أبو الخطاب؟ قال: قلت: نعم. قال: كنت إذاً أهجر. قال: قلت: فبما تحكمون؟ قال: بحكم آل داود، فإذا ورد علينا شيء ليس عندنا تلقّانا به روح القدس.[1]

٥. النتيجة

يمكن أن نستفيد من مجموع ما ذكرنا وما توصّلنا إثر البحث في الروايات المروية عن زرارة وآل أعين بشأن مسألة الإمامة أنّ الإمامة في نظرهم بدأت منذ العوالم التي سبقت هذا العالم، وبعد جريانها في عالم الدنيا، ستبقى في العوالم اللاحقة أيضاً. وبغية الاصطفاء اجتاز الإمام مراحل عديدة حتّى وصل إلى مرحلة النصب والجعل الإلهيّ. وفي مجال مسؤوليات الإمامة ومقامات الإمام، لم يتوقف دور الإمام على الصعيد الديني، وإنّما له دور على صعيد الولاية التشريعيّة والتكوينيّة معاً. ولهذا السبب تعدّ معرفة الإمام أمراً ضروريّاً، ومن الواجب على الناس معرفته. ويحظى الإمام في هذه الرؤية بمقامات رفيعة وعلم خاصّ، ففضلاً عن التراث العلمي الذي يرثه من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء السابقين عليهم السلام، يزداد علم الإمام عن طريق الوحي غير التشريعي، ويسمّى هذا النوع من تلقّي الوحي بالتحديث، فيكون الإمام محدَّثاً. وفي ما يتعلق بالعصمة، فإنّ عصمة الإمام فعل إلهي. وفي الحقيقة، يمكن إدراك وجود نوع من الاختلاف بين الخطّ الفكري لهشام وزرارة حول عصمة الإمام وعلمه الخاصّ، فذهب زرارة وآل أعين عموماً إلى أنّ الإمام بهذه المواصفات والمقامات يصبح إماماً على الناس عبر النصب والجعل الإلهي، ويمكن التعرّف عليه عن طريق النصّ.

■ ■ ■

١. المصدر نفسه.

المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. ابن بابويه، علي بن الحسين، الإمامة والتبصرة من الحيرة، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، قم: منشورات مدرسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، ١٤٠٤هـ.

٣. ابن داوود الحلي، الحسن بن على، رجال إبن داوود، قم: منشورات الشريف الرضي، [د.ت].

٤. ابن فارس، احمد، معجم مقاييس اللغة، بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

٥. أبو غالب، الزراري، احمد بن محمد، رسالة في آل أعين، قم: مركز البحوث و التحقيقات الإسلامية، ١٤١١هـ.

٦. الأشعري القمّي، سعد بن عبد الله، المقالات والفرق، طهران: المنشورات العلمية الثقافية، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.

٧. البحراني، هاشم، الإنصاف في النّص على الأئمة، طهران: مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٣٧٨هـ.

٨. البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن، تحقيق: جلال الدين المحدّث، قم: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٣٧١هـ.

٩. الحلّي، الحسن بن يوسف، خلاصة الأقوال، نشر الفقاهة، ١٤١٧هـ.

١٠. الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق: أمير مهنا وعلي فاعور، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٤هـ.

١١. الصدوق، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، تحقيق: علي أكبر الغفاري، طهران: الدار الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

١٢. ----------، من لايحضره الفقيه، قم: مكتب النشر الإسلامي، ١٤١٣هـ.

١٣. الصفّار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، قم: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

١٤. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات اسماعيليان، [د.ت]

١٥. الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، طهران: دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٤٠٧هـ.

١٦. ----------، الأمالي، قم: مؤسسة البعثة، [د.ت].
١٧. عدد من الباحثين، جستارهايى در مدرسه كلامى كوفه، قم: دار الحديث، ١٣٩٥ش.
١٨. العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، تحقيق: محمد هاشم الرسولي المحلاتي، طهران: المطبعة العلمية، ٢٠٠١م.
١٩. الكشّي، محمد بن عمر، رجال الكشّي - اختيار معرفة الرجال، تحقيق: حسن المصطفوي، مشهد: مؤسسة النشر في جامعة مشهد، ١٤٠٩هـ.
٢٠. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تعليق: علي أكبر الغفاري، طهران: دار الكتاب الإسلامي، [د.ت].
٢١. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣هـ.
٢٢. المفيد، محمد بن محمد، رسالة عدم سهو النبي، الموتمر العالمي لالفيه الشيخ المفيد، ١٤١٣هـ.
٢٣. النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الخامسة، ١٩٨٦م.
٢٤. النوبختي، حسن بن موسى، فرق الشيعة، بيروت: دار الأضواء، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.